

جوانب مشرقة من تاريخ العلاقات المغربية الشامية خلال العصر الوسيط

د. نور الدين امعيط

أستاذ التعليم العالي مساعد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة شعيب
الذكالي
الجديدة – المملكة المغربية



مُلخَص

يكتسي استدعاء الذاكرة التاريخية لمواضيع تخص العلاقات بين البلدان العربية والإسلامية، أهمية قصوى، ليس بقصد استحضار مظاهر وجذور العلاقات المتميزة بين أقطار الأمة الواحدة فحسب، ولكن بهدف استنهاض الهمم ورس الصفوف والتذكير بالثوابت، وذلك بعدما ابتعدت الأجيال الصاعدة عن تأمل تاريخها، حيث أعمت بصيرتها فواصل الحدود والدعاية الإقليمية التي كرسها الدوائر الاستعمارية. ولئن كان الحديث عن العلاقات بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد الشام التاريخية الكبرى، يقتضي الوقوف على مظاهر التأثير والتأثر بين هذين الجناحين من العالم الإسلامي، وأن لفظه العلاقات دون إضافة، تحيل على موضوع شاسع يشمل مختلف الجوانب الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإننا نسعى من خلال هذه الدراسة إلى التركيز أساساً على الجوانب المشرقة في العلاقات المغربية الشامية من خلال الوقوف على أصالة هذه العلاقات، ودواعي استقرار المغاربة ببلاد الشام، ومشاركتهم الفعالة إلى جانب إخوانهم الشاميين في صد الهجمات الصليبية، مع إبراز مظاهر المحبة والإشادة المتبادلة بين المغاربة وأهل الشام خلال العصر الوسيط. وقد أوضحت الدراسة أصالة العلاقات المغربية الشامية وعراقتها، وروح التأزر والتضامن والشعور بالوحدة الذي ميز أبناء الأمة الإسلامية خلال مراحل مختلفة من العصر الوسيط، وذلك على الرغم مما شهدته الأمة الإسلامية من انقسامات سياسية واختلافات مذهبية، وقد ظهرت روح التأزر جلية في انخراط أعداد هائلة من المغاربة على اختلاف أصولهم في الجهاد ضد الصليبيين، والمساهمة بفعالية إلى جانب إخوانهم المشاركة في المعارك البرية والبحرية ضد الغزو الصليبي لحماية البقاع المقدسة.

كلمات مفتاحية:

المغاربة؛ الفتوحات الإسلامية؛ بلاد الشام؛ الحروب الصليبية؛ صلاح الدين الأيوبي

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٨ يونيو ٢٠٢١
تاريخ قبول النشر: ٠٢ يوليو ٢٠٢١

DOI 10.21608/KAN.2021.247100 معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

نور الدين امعيط، "جوانب مشرقة من تاريخ العلاقات المغربية الشامية: خلال العصر الوسيط". - دورية كان التاريخية. - السنة الرابعة عشرة - العدد الثالث والخمسون، سبتمبر ٢٠٢١، ص ٤٧ - ٥٦.

Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: nour7404@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

الحموي في معجمه^(٦)، فهؤلاء جميعا يذكرون نهر الأردن، ومدينة عمان، والعقبة والكرك وغيرها.

ندرة الدراسات التي اعتنت بالعلاقات المغربية الشامية خلال العصر الوسيط، لا سيما تلك التي تخص الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، ولعل مرد ذلك إلى قلة الإشارات المصدرية الواردة بشأنها، وهو ما انعكس سلبا على حصيلة أبحاث الدارسين في هذا المجال، فباستثناء كتاب الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام للدكتور أحمد علي^(٧)، وكتاب وقفات في تاريخ بلاد الشام للدكتور عبد المجيد بهيني^(٨)، وكتاب بين أخلاقيات العرب وذهنيات الغرب للدكتور إبراهيم القادري بوتشيش^(٩) وكتاب زكي النقاش^(٩)، لا نكاد نصادف دراسة متخصصة، ذات صلة مباشرة بالموضوع^(١٠).

ثانياً: أصالة العلاقات المغربية الشامية

لا شك أن تاريخ العلاقات المغربية الشامية، يعود إلى فترات تاريخية ضاربة في القدم، فقد كان لبلاد الشام دور كبير في تعريب المغرب الكبير منذ أوائل القرن الحادي عشر- قبل الميلاد، أي أزيد من ثلاثة آلاف سنة حيث دخل الكنعانيون العرب إلى القسم الشمالي-الغربي من القارة الأفريقية، وأسسوا عام ١٠١٠ قبل الميلاد العديد من المدن والمراكز التجارية من قبيل "ليكسو" في المغرب الأقصى- وعتيقة (Utique) في تونس ولبدة (Leptis Magus) في ليبيا، كما أعقب ذلك تأسيس مدينة قرطاج (Carthage) سنة ٨١٤ ق.م^(١١). ويبدو أن الحضور القرطاجي بالشمال الإفريقي، قد فسح المجال للكنعانيين العرب لنشر لغتهم البونية (Langue punique) بمناطق شاسعة من المغرب الكبير، إلى جانب العامية الدارجة بالمنطقة، وهو ما توصلت إليه بعض الأبحاث الأنتروبولوجية التي أكدت تسرب اللغة البونية إلى المغرب مع القرطاجيين وظلت متغلغلة بالبادية المغربية إلى نهاية عهد الوندال أي إلى عهد الفتح الإسلامي^(١٢).

وإذا كانت الفتوحات الإسلامية قد دشنت لعلاقات رسمية بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد الشام، منذ عهد الفاتح العربي عقبة بن نافع، فإن هذه العلاقات ستترسخ أكثر بفتح الأندلس سنة ٩٢هـ/٧١٢م، إثر انطلاق جند الخليفة الأموي من دمشق بقيادة موسى ابن نصير، وخليفته طارق بن زياد، ضمن جيش يقدر بنحو عشرة آلاف رجل، معظمهم من العرب القيسية واليمينية، وهو ما أسفر عن استقرار عدد مهم من الأسر الشامية بالأندلس محققة اندماجا أثريا وثقافيا مع السكان المحليين بالبيئة الجديدة.

يكتسي- استدعاء الذاكرة التاريخية لمواضيع تخص العلاقات بين البلدان العربية والإسلامية، أهمية قصوى، ليس بقصد استحضار مظاهر وجدور العلاقات المتميزة بين أقطار الأمة الواحدة فحسب، ولكن بهدف استنهاض الهمم ورض الصفوف والتذكير بالثوابت، وذلك بعدما ابتعدت الأجيال الصاعدة عن تأمل تاريخها، حيث أعمت بصيرتها فواصل الحدود والدعاية الإقليمية التي كرسها الدوائر الاستعمارية.

ولئن كان الحديث عن العلاقات بين بلاد المغرب الإسلامي^(١٠) وبلاد الشام التاريخية الكبرى^(٧)، يقتضي الوقوف على مظاهر التأثير والتأثر بين هذين الجناحين من العالم الإسلامي، وأن لفظة العلاقات دون إضافة، تحيل على موضوع شاسع يشمل مختلف الجوانب الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإننا نسعى من خلال هذه الدراسة التركيز أساساً على الجوانب المشرقة في العلاقات المغربية الشامية من خلال الوقوف على أصالة هذه العلاقات ودواعي استقرار المغاربة ببلاد الشام ومشاركتهم الفاعلة إلى جانب إخوانهم الشاميين في صد الهجمات الصليبية، مع إبراز مظاهر المحبة والإشادة المتبادلة بين المغاربة وأهل الشام خلال العصر الوسيط.

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة أساساً على كتب الجغرافيا والرحلات كجغرافية الزهري (ت.٥٤١هـ)، ونزهة الإدريسي (ت.٥٥٩هـ) ورحلة ابن جبير البلنسي (ت.٥٨١هـ) ومعجم ياقوت الحموي (ت.٦٢٦هـ) ورحلة ابن بطوطة الطنجي (ت.٧٧٩هـ)، فضلا عن بعض كتب التراجم كالذيل على الروضتين لأبي شامة المقدسي (ت.٦٦٥هـ)، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة دمشقي (ت.٦٦٨هـ) والوافي بالوفيات للصفدي (ت.٧٦٤هـ)، إضافة إلى مصادر أخرى، ودراسات ذات صلة بالموضوع.

أولاً: ملاحظات منهجية

إن حدود بلاد الشام التاريخية خلال العصر الوسيط، كانت ممتدة على مجال جغرافي شاسع، يضم أرض سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، وهو تقسيم حديث من صنيعه الدوائر الاستعمارية.

إن تسمية الأردن، هي تسمية تاريخية أصيلة، لها ما يبررها في المصادر المغربية والمشرقية خلال العصر الوسيط، ليس كجزء من بلاد الشام فحسب، ولكن ككيان له مميزاته ومعامله الجغرافية والتاريخية، ولا غرو، فهناك إشارات واضحة عند كل من الإدريسي- في نزهته^(٣)، والزهري في جغرافيته^(٤)، وياقوت

ثالثاً: دواعي الحضور المغربي في بلاد الشام

لا شك أن الحضور المغربي العريق ببلاد الشام، يعكس مظاهر العلاقات المتينة بين المغرب الإسلامي، وأرض الشام التاريخية الكبرى، فهي علاقات ضاربة في أعماق التاريخ، تتعدى الحقبة الوسيطة إلى العصور القديمة، وإذا كانت رحلات المغاربة والأندلسيين حتى القرن الخامس الهجري، هي رحلات مؤقتة، فإن رحلاتهم اللاحقة صارت من أجل الاستقرار الدائم والمجاورة في محيط الأماكن المقدسة ببلاد الشام والحجاز، كما غدا المشرق العربي ومنه بلاد الشام، مقصداً للمغاربة والأندلسيين الذين ضاع ملكهم بالأندلس، وقد وجدوا هنالك أرضاً خصبة وظروفاً ملائمة للاستقرار فانخرطوا في الحياة الاجتماعية^(٢٢).

وعلى الرغم من ارتباط المغاربة ببلاد الشام، ارتباطاً روحياً ووجدانياً، فإن الإشارات المصدرية لا تسعف في تحديد تاريخ محدد ودقيق لبداية توافد المغاربة على البلاد الشامية، غير أن بعض الرحالة المغاربة، قد أفصحوا عن تاريخ رحلاتهم التي استمر بعضها مدة طويلة، فضلاً عن الرحلات الدينية التي كانت تهدف لزيارة البقاع المقدسة خاصة المسجد الأقصى، هناك رحلات علمية لمغاربة قصدوا المشرق الإسلامي وزاروا بلاد الشام، وكان مقصدهم استكمال تكوينهم العلمي على يد الشيوخ المشاركة والحصول على الإجازات^(٢٣). وقد تعددت دواعي وأسباب الحضور المغربي ببلاد الشام خلال العصر الوسيط، كما تعددت مظاهر هذا الحضور من خلال المجالات التي اشتغل فيها المغاربة هناك، وما لقوه من ترحاب وكرم الضيافة، فاندمجوا اندماجاً كلياً داخل المجتمع الشامي، ولا أدل على ذلك من تداول بعض الألقاب المغربية بالشام كلقب الفاسي والمغربي والتاهرتي والطرابلسي وغيرها.

ويبدو أن الحضور المغربي بالشام، قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالظروف الاقتصادية والسياسية والفكرية للبلدان المستقطبة، حيث استقبلت بلدان الشام ومصر النصيب الأوفر من هؤلاء المهاجرين، عكس مدن الحجاز التي لم تشكل منطقة جذب، رغم مكائنها الروحية، ويرجح أن يكون ذلك راجع إلى قساوة مناخها وفقر مواردها الطبيعية خلال الحقبة الوسيطة^(٢٤). وقد أبرز أحد الباحثين^(٢٥) أن دواعي استقرار المغاربة ببلاد الشام خلال العصر الوسيط، قد ارتبطت بالساحتين الشامية والمغربية-الأندلسية على حد سواء، على أن الدواعي المرتبطة بالساحة المغربية كمناطقة طرد، اتسمت

وقد ازدادت الروابط السياسية والثقافية، بين بلاد الشام والمغرب الإسلامي متانة، منذ دخول الأمير الأموي الشامي عبد الرحمان بن معاوية بن هشام المعروف بعبد الرحمان الداخل، إلى المغرب ومنها إلى الأندلس سنة ١٣٧هـ، حيث فر هذا الأمير رفقة مولاه بدر إلى مصر ومنها إلى القيروان، ثم إلى قبيلة نفزة حيث أحواله بسببته التي مكث بها خمس سنوات قبل هجرته إلى الأندلس مستغلاً الشقاق القائم بين القيسية واليمينية هناك^(٢٦). وذكر المقرئ عدداً مهماً من الشاميين ممن دخلوا بلاد الأندلس من ولادة الأمويين، فضلاً عن عبد الرحمان الداخل، هناك جزي بن عبد العزيز، وزرعة بن روح الشامي، ويجي بن عبد الرحمان القيسي الدمشقي، وزرياب علي بن نافع المغربي، والولي يوسف الدمشقي، وغيرهم كثير^(٢٧).

وبحكم التواصل التاريخي بين العدوتين المغربية والأندلسية، فقد دخلت عبر الأندلس العديد من الأسر الشامية الأصل إلى مدينة فاس، خاصة بعد وقعة الربض سنة (٢٠٢هـ/٨١٨م)^(٢٨)، وهي الوقعة التي أسفرت عن طرد الأندلسيين من طرف الحكم بن عبد الرحمان الداخل حين انهزم في ملذاته فخلعه العلماء بقرطبة، فكان رده أن أجلاههم إلى فاس والإسكندرية^(٢٩). واستمرت علاقات التأثير والتأثر بين بلاد المغرب وبلاد الشام خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، على مستويات عدة أهمها الحضارة والفكر، فقد دخلت في بناء جامع القرويين سنة ٢٤٥هـ، عناصر من فنون دمشق، وأضاف الناصر الأموي سنة ٣٤٥هـ اثني عشر بلاطاً جديداً لمسجد قرطبة، وحول المنارة إلى مكانها الحالي، وغلف بابها بصفائح النحاس الأصفر مع قبة صغيرة مزينة بتفاح مموهة بالذهب، وبذلك اندمجت عناصر المعمار الشامي بإضافة الفن الأندلسي المغربي بالمسجد الأموي بقرطبة وبمدينتي الزهراء والزاهرة^(٣٠)، كما اصطبغت معظم كبريات المدن المغربية بالطابع الشرقي حتى شبه المؤرخون مدينة فاس بدمشق، بل إن مدينة حمص أحد أرباض فاس الجديد، هي عبارة عن قصبة أسست للرملة الغز الواردين من مدينة حمص السورية^(٣١).

وإذا كان التواصل الحضاري المباشر بين بلاد الشام والمغرب الإسلامي، قد ظل محافظاً على استمراريته منذ القرن الأول الهجري إلى القرن العاشر الهجري، في رأي أحد الباحثين^(٣٢)، فإن هذا التواصل، لم ينقطع يوماً، إذ لا يزال مستمرًا، بحسب تقديرنا، إلى حدود الفترة الراهنة.

بالعلوم العقلية والنقلية، وفيما يلي نورد بعض المجالات التي سجلوا فيها حضورًا بارزًا.

١/٤- المجال العلمي

عمل قسم كبير من الأطباء المغاربة والأندلسيين ببلاد الشام، كما درسوا الطب والصيدلة وتخرج على أيديهم عدد كبير من الطلاب الشاميين الذين استطاع بعضهم أن يصل إلى مستوى عال من المهارة في صناعة الطب، ومن هؤلاء نذكر مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمان الحارثي الدمشقي (ت ٥٩٩هـ/١١٨٤م) الذي درس الطب والهندسة على يد الطبيب الأندلسي- أبي المجد محمد بن أبي الحكم (ت ٥٧٠هـ/١١٧٤م)^(٢٩)، والطبيب الأندلسي- عمر بن علي البدوخ (٥٧٦هـ/١١٨٠م)^(٣٠) الذي أسدى خدمات جليلة لطبقة العامة من المجتمع الشامي خلال فترة وجوده بدمشق.

وفي صناعة الصيدلة، سجل المغاربة والأندلسيون حضورًا لافتًا من خلال بعض مؤلفاتهم في هذا المجال، حيث استفاد الطبيب الدمشقي ابن أبي أصيبعة (ت ٦٨٦هـ/١٢٧٠م)^(٣١) في كتابه "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، من كتاب الصيدلاني الأندلسي المعروف بابن (ت ٥٧٠هـ/١١٧٤م) صاحب كتاب "الجامع في الأدوية المفردة". وإذا كان علم الكيمياء والهندسة من العلوم التي ظلت منبوذة بالمجتمع الإسلامي عامة، لما ساد عند العامة والخاصة من اعتقاد اتصالها بالسحر والدجل والشعوذة، فإن اجتهادات طيبة ببلاد الشام، أبرزها علماء مغاربة في هذا المجال، ومنهم نذكر الطبيب والمهندس المغربي يحيى البياسي (ت ٥٤٢هـ)^(٣٢) نزيل دمشق الذي ابتكر آلات هندسية قدمها هدية لأستاذه الدمشقي ابن النقاش.

وفي مجال العلوم الدينية، بلغ حضور المغاربة والأندلسيين، من الصيت والشهرة، ما جعلهم يتقلدون مناصب مهمة في التدريس والإفتاء والخطابة والقضاء، وبرز منهم الحفاظ والمحدثين والقراء، ومن هؤلاء تذكر المصادر بعض النماذج من القرنين السادس والسابع للهجرة، ممّن تبوؤا مكانة مرموقة كمحمد بن علي الجياني أمين خزانة الكتب بالمدرسة النورية بحلب سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، ومحمد بن سراقبة الشاطبي شيخ الحديث بالمدرسة البهائية بنفس المدينة سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٥م^(٣٣). وخلال القرن الثامن الهجري، ذكر ابن بطوطة أن بعض المغاربة صاروا يشغلون مناصب دينية مرموقة، حيث ذكر أن من فضلاء القدس رجلاً مغربيًا هو "مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس"^(٣٤). بل من الباحثين^(٣٥) من أحصى أسماء عشرين قاضيا تعاقبوا على

بالسلبية في مجموعها، مما أجبر العديد من الأسر على النزوح عن وطنهم بصفة دائمة.

ولعل من أسباب نزوح المغاربة والأندلسيين إلى أرض الشام، سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ، وظهور دويلات ملوك الطوائف، مع ما نتج عن ذلك من تدهور أوضاع أهل الأندلس اقتصاديا واجتماعيًا ونفسيًا. فضلاً عن خضوع المجال المغربي الأندلسي- لحكم دول ذات مبادئ مذهبية وسياسية مختلفة كدولتي المرابطيين (٤٨٥-٥٤١هـ) والموحدين (٥٤١-٦٦٨هـ)، وهو ما صاحبه تبدل عقائدي انعكس سلبيًا على فئة مهمة من الأندلسيين الذين تضررت مصالحهم فتحولوا إلى فئات معارضة للحكم وبحثوا عن مواطن جديدة آمنة لهم من خلال الهجرة إلى المشرق ومنها بلاد الشام^(٢٤). وفي هذا الصدد ذكر المقري^(٢٥) هروب والد أبي بكر بن العربي إلى بلاد الشام إثر سقوط ملوك الطوائف، كما ذكر ابن جبير^(٢٦) في رحلته أن أمين الربوة المباركة بدمشق المدعو أبو الربيع ابن سليمان بن إبراهيم بن مالك، قد نزح إلى بلاد الشام عقب سقوط الدولة المرابطية.

ويبدو أن الحضور المغربي ببلاد الشام قد تعزز أكثر، بعد النصف الثاني من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، بفعل تراجع النفوذ الإسلامي بالأندلس وتزايد عمليات الطرد وحروب الاسترداد وسقوط أغلب المدن الأندلسية بيد المسيحيين، خاصة بعد سنة ٦٥٩هـ وتوالي الحملات الصليبية على بلاد المشرق، فضلا عن عوامل أخرى ارتبطت باضطرابات الفترات الانتقالية، وتحركات القبائل الهلالية بالمنطقة، مما دفع بلجوء الكثير من المغاربة إلى بلاد الشام^(٢٧). ولا شك أن ما توفرت عليه ربوع بلاد الشام من خيرات اقتصادية وافرة^(٢٨)، وإنتاج زراعي وصناعي متنوع، وتجارة نشيطة بالحوض المتوسطي، وموقع استراتيجي رفيع، قد شكل عوامل جذب للمغاربة قصد الاستقرار بالشام، فضلا عما تميز به الشاميون من شيم الكرم والجود، ومساعدة الغريب، وكرم الضيافة، ومحبتهم للمغاربة، وغيرها مما سنستبته في حينه.

رابعًا: بعض مجالات الحضور المغربي في بلاد الشام

تعددت مجالات حضور المغاربة والأندلسيين ببلاد الشام، إذ تؤكد المصادر أنهم شاركوا في جميع مناحي الحياة العامة، وعبروا في كثير من الأحيان عن صدقهم وتفانيهم في كل الأعمال التي أوكلت إليهم، حتى أنهم غدوا روادا ومعلمين في ميادين اختصاصاتهم، وترك بعضهم آثارًا علمية خالدة في عدد من

وبالمثل، فقد اشتغل المغاربة في بعض الخدمات كالعاملين في الحمامات وحراسة البساتين، وغيرها، واستطاع بعضهم تحسين ظروفهم المعيشية، بل تسلقوا مناصب مرموقة، ومن هؤلاء نذكر أبو حفص عمر بن سعيد التلمساني (ت ٧٥٦هـ) الذي كان أميناً على طاحونة، فأصبح قاضي قضاة المالكية بدمشق، والمغربي علي بن عثمان بن يحيى الصنهاجي الذي عمل شواء للحم، قبل أن يصبح أميناً للسجن بنفس المدينة^(٤٥). هكذا يبدو أن الجالية المغربية الأندلسية، قد سجلت حضوراً لافتاً ببلاد الشام، إذ ساهمت، وخلال فترات مختلفة من العصر الوسيط، بنصيب وافر في إثراء مختلف مناحي الحياة العلمية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، خاصة وأنهم وجدوا بها "أرضاً صالحة، تقيهم شر العوز والحاجة وتخفف عنهم مرارة الشوق والبعد عن الوطن الأم"^(٤٦).

خامساً: روح التضامن والوحدة بين المغاربة وأهل الشام زمن الحروب الصليبية

عبر المغاربة عن حس عربي إسلامي في محطات كثيرة من تاريخ العلاقات المغربية الشامية، وترجموا هذا الحس إلى حقيقة وفعل تضامني مع أشقائهم الشاميين مدافعين ومضحين بأنفسهم وأموالهم في سبيل نصرته أهل الشام زمن الحروب الصليبية. لقد خلفت الحملة الصليبية الأولى أصداء محزنة وشعوراً بالفجيعة^(٤٧)، لما بلغ إلى مسامع المغاربة أخبار هزيمة المسلمين سنة ٤٩٢هـ/٩٨٠م، بعد أن ألح الصليبيون "على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا، واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام، وغلبوا على بيت المقدس، وبنوا عليه كنيسة لمظهر دينهم وعبادتهم"^(٤٨)، غير أن المغاربة سرعان ما استعادوا رباطة جأشهم فصمموا على مضاعفة الجهود والانخراط بالنفس والمال دفاعاً عن المقدسات ونصرة لإخوانهم الشاميين.

وبعد انتصار صلاح الدين الأيوبي، وفتح بيت المقدس، عمت الفرحة والابتهاج أهل المغرب الإسلامي، وهو ما يتضح من خلال ترجمة ابن عبد الملك للرحالة ابن جبير حين قال "ولما شاع الخبر المبهج المسلمين جميعاً حينئذ بفتح بيت المقدس (...)" وكان ذلك من أقوى الأسباب التي بعثته (ابن جبير) على الرحلة الثانية، وقال: وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام وزيارة المصطفى، وزيارة المساجد الثلاث في عام واحد متوجهاً، وفي شهر واحد منصرفاً"^(٤٩). وتزخر المصادر بإشارات مهمة عن المغاربة الذين شاركوا بفعالية ضمن المتطوعين في جيش نورالدين محمود زنكي وفي جيش

قضاء المالكية بطرابلس الشام منذ سنة ٧٧٦هـ/٣٧٤م حتى نهاية دولة المماليك سنة ٧٩٢هـ/١٥١٦م، وجميعهم من أصول أندلسية ومغربية من تلمسان وطنجة وغيرها.

٢/٤- المجال الاقتصادي

لم يقتصر الحضور المغربي الأندلسي ببلاد الشام على المجال العلمي فحسب، بل امتد إلى المجال الاقتصادي أيضاً، إذ عمل المغاربة في القطاع الزراعي، بحكم تفرسهم في هذا المجال، لا سيما الأندلسيين، كما عملوا في حراسة البساتين بحسب الإفادات التي قدمها أبي بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ) حين عبر عن أماله قبيل هجرته من الأندلس، بالعمل "في الزراعة وحراسة البساتين بالأجر"^(٥٠)، ونفس الأمر أكده الرحالة ابن جبير (ت ٦١٤هـ)^(٥١) متحدثاً عن الحضور المغربي ببلاد الشام حين قال "وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، ويثالث الخبز عليه من أهل الضيعة"^(٥٢).

وإذا كان حضور المغاربة ببلاد الشام في قطاع الحرف والصنائع، يبدو باهتاً، فإن ذلك لا يعكس البتة الواقع التاريخي، بحسب تقدير أحد الدارسين^(٥٣)، بقدر ما يعزى أساساً إلى ضعف الإشارات المصدرية التي تفيد حضورهم في هذا المجال، إذ تصادف جملة من المغاربة الذين اشتغلوا في قطاع الصناعة بالشام خاصة في حقل صناعة الحرير والتجارة وصناعة السفن^(٥٤)، ومن هؤلاء نذكر المغربي المسمى محمد السبتي (ت ٦٢٦هـ) الذي اشتغل نجاراً وجمع ثروة طائلة مكنته من تقديم المساعدة للغرباء المقيمين بدمشق لا سيما المغاربة منهم^(٥٥)، ويذكر أبو شامة أن هذا الرجل يعود له فضل تجديد بناء أحد المساجد من ماله الخاص^(٥٦).

ولئن كانت الإشارات المصدرية الدالة على حضور المغاربة بقطاعي التجارة والخدمات، نادرة ومتناثرة، فإن منها ما يفيد اشتغال مغاربة بالتجارة كأبي الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري الأندلسي البلنسي المحدث الذي توفي سنة ٥٤١هـ، وكان "فقيهاً عالماً متقناً (...)" رحل إلى المشرق وسافر في التجارة إلى الصين، وتفقه على الغزالي^(٥٧)، ثم يوسف بن يحيى بن إسحاق السبتي الطيب الذي اشتهر بالعمل في التجارة منذ وصوله أرض الشام في بداية القرن السابع الهجري، وقد وظف جزءاً من أمواله في أعمال الخير^(٥٨).

ويبدو أن حدث الرسالة التي وجهها صلاح الدين إلى الخليفة الموحي يعقوب المنصور سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م^(١١)، أثناء الحملة الصليبية الثالثة، لم يؤثر أبداً على متانة العلاقات المغربية الشامية، حيث استمرت حركة المتطوعين إلى ما بعد العهد الأيوبي، واستمرت معها عمليات الوقف على المغاربة ببلاد الشام^(١٢) حتى بعد حدث الرسالة بكثير، وحسبنا أن نذكر أن الملك الأفضل، نجل صلاح الدين الأيوبي، قد حبس المكان الذي اعتاد المغاربة أن يجاوروا عنده في بيت المقدس ليسكنوا في مساكنه ويتفجعوا بمنافعه. وعلى الرغم مما شاع من امتناع يعقوب المنصور عن تقديم المساعدة لأسباب أمنية وسياسية، فإن المؤرخ المغربي الناصري السلادي، قد أورد نصاً يشير فيه إلى النصر والمعونة التي قدمها المنصور الموحي لصلاح الدين الأيوبي بقوله "ويقال إنه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولاً، ومنع النصارى من سواحل الشام، والله أعلم"^(١٣).

وفيما ذكر أحد الباحثين^(١٤) أن صلاح الدين الأيوبي لم يتمكن من تجيش مسلمي الغرب الإسلامي للكفاح المستمر ضد الفرنجة، أكد آخر^(١٥) أن أصداء استجابة المنصور لطلب صلاح الدين لم يتردد في الدراسات الغربية التي اهتمت بالتأريخ لهذه الحقبة. ومهما يكن من أمر، فإن عدداً من الباحثين^(١٦)، قد أكدوا قوة العلاقات المغربية الشامية، التي ظلت في أوجها، فهي لم تتأثر بهذا الحدث، بقدر ما حافظت الإرادة الشعبية والسياسية على نفس الحماس والمحبة والتضامن.

سادساً: المغاربة والشاميون، محبة وإشادة متبادلة

لعل من بين المصادر التي تنقل صورة واضحة عن التقدير والمحبة المتبادلة بين أهل الشام وأشقايتهم المغاربة، نذكر كتب الرحلات التي قام بها بعض المغاربة خلال العصر الوسيط، ومنهم ابن جبير الكناني البلسي. وابن رشيد السبتي والعبدي الحاحي وابن بطوطة الطنجي وغيرهم ممن زاروا أو سمعوا عن بلاد الشام فدونوا مشاهداتهم وارتساماتهم ضمن مصنفاتهم. ذكر ابن جبير أن صلاح الدين الأيوبي، كان يكن محبة خاصة للمغاربة، لا سيما البحارة والغرباء منهم، فقد جعل المسجد الكبير المنسوب لأبي العباس بن طولون "مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر"^(١٧)، كما جعل أحكامهم إليهم، ولم يجعل يداً لأحد عليهم، فقدموا من أنفسهم حاكماً يمثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده^(١٨). ولم يتردد ابن بطوطة في التنويه

صلاح الدين الأيوبي في حروبهما ضد الصليبيين خلال القرن السادس الهجري، سواء في الجهاد البري أو البحري^(١٩)، إذ لم يكن للمغاربة المتواجدين ببلاد الشام، أن يتخلفوا عن موعد نصرته إخوانهم المسلمين ضد الصليبيين، ومن الإشارات الدالة على أهمية هذه المشاركة، التدخل المغربي الأول في هذه الحروب سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، واستشهاد الإمام المغربي يوسف بن دوناس الفندلاوي^(٢٠) نزير دمشق، وهو من أحواز مدينة فاس^(٢١)، دفاعاً عن مدينة دمشق التي حاصرها الصليبيون، وكذا المساهمة المغربية الفاعلة في فتح حصن الأحران بمدينة عكا سنة ٥٧٤هـ^(٢٢).

وتجسيداً لروح التضامن والوحدة بين المغاربة وإخوانهم الشاميين، قام المغاربة بأدوار طلائعية في الجهاد البحري ضد الصليبيين، بل تولوا مناصب مهمة في التنظيمات الجهادية البحرية، ويذكر ابن الأثير المجاهد المسمى "عبد السلام المغربي" الذي اشتغل رئيساً للأساطيل صلاح الدين الأيوبي، وعرف بالحدق والشجاعة، حتى قضى نحبه غريقاً في حصار مدينة صور سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م^(٢٣)، وكذا المجاهد القيرواني "عبد العزيز بن شداد" الذي هاجر إلى الشام واستشهد هنالك، وقد كان من أمراء جيش صلاح الدين الأيوبي أواخر القرن السادس الهجري^(٢٤). وقد سار على نهج المجاهد عبد السلام المغربي عدد من البحريين المغاربة، الذين شاركوا إلى جانب حسام الدين لؤلؤ الحاحب، قائد الأسطول المصري، فكانت مهمتهم موفقة حين أفلحوا بالإقامة في البحر، يقطعون الطريق على الفرنج، كلما رأوا لهم مركباً غنموه وشانياً أخذوه^(٢٥) بحسب تعبير ابن الأثير. وعن المجاهدين المغاربة الذين أبلوا البلاء الحسن في مواجهة الصليبيين ببلاد الشام خلال القرن الثامن الهجري، انفرد النووي بإشارة عن الرئيس البطرني المغربي قاضي طرابلس^(٢٦) الذي شارك في جهاد الفرنجة حين خرج مع نائب السلطنة بالمدينة أسندم الكرجي لحصار جزيرة أرواد سنة ٧٠٢هـ، بعد أن كان الفرنجة قد اتخذوا منها قاعدة لمواصلة اعتداءاتهم على سواحل الشام، وقد تم فتح الجزيرة بعد قتال لم يدم سوى ساعة واحدة^(٢٧). ومما يعكس روح التضامن والوحدة بين المغاربة وأهل الشام، أن هؤلاء المجاهدين المغاربة، لم يكونوا جيوشاً منظمة أرسلتها حكوماتهم لنصرة إخوانهم، ولكن جهودهم كانت جهود أفراد وجماعات، كانت تأتي إلى المشرق لأغراض عدة أهمها الحج أو طلباً للعلم والتجارة أو هما معاً، أو خصيصاً للجهاد وإغاثة إخوانهم الشاميين ضد الصليبيين^(٢٨).

خاتمة

يتضح مما تقدم أصالة العلاقات المغربية الشامية وعراقتها، وروح التأزر والتضامن والشعور بالوحدة الذي ميز أبناء الأمة الإسلامية خلال مراحل مختلفة من العصر الوسيط، وذلك على الرغم مما شهدته الأمة الإسلامية من انقسامات سياسية واختلافات مذهبية، وقد ظهرت روح التأزر جلية في انخراط أعداد هائلة من المغاربة على اختلاف أصولهم في الجهاد ضد الصليبيين، والمساهمة بفعالية إلى جانب إخوانهم المشاركة في المعارك البرية والبحرية ضد الغزو الصليبي لحماية البقاع المقدسة.

وفي وقت صارت فيه مشاكل الحدود تتناسل بين أقطار الأمة الواحدة، وتعمقت فيه مظاهر الجفاء التي زرع بذورها المستعمر، وظل يغذيها بقوة خدمة لأطماعه البئيسة، أصبح من أوجب الواجبات على المؤرخ تصحيح الصورة ونزع الاستلاب وتأكيد الروابط، لأن الوطن العربي مشرقاً ومغرباً، يمتلك من مقومات الوحدة والتضامن وأسس القوة والتجاوز، ما يجعل منه قوة ضاربة ومهابة الجانب في جميع المجالات. ولعل من أهم تلك المقومات والأسس، ما يرتبط بالمقوم الثقافي، فلم تكن الثقافة العربية في المغرب والأندلس غير الثقافة بالشام أو الحجاز، فهي ثقافة واحدة، ظهرت في المشرق وانتقلت إلى بلاد المغرب والأندلس مع الفاتحين المسلمين لتتطور في عهد الدول المركزية التي حكمت بلاد الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، والتي ظلت على صلة وطيدة ببلاد المشرق الإسلامي بمجالاتها الثلاث الشام والحجاز ومصر.

بملوك الشام، حيث وصف السلطانين صلاح الدين ونور الدين بالعدل والصلاح^(٦٨)، كما ذكر أن بطرابلس القديمة رجلاً من الأعلام يسمى بهاء الدين بن غانم، عرف بالسخاء والكرم^(٦٩)، مؤكداً أن أهل الشام يعتنون بكرم الغرباء، "فحصن المرقب من الحصون العظيمة (...)" وخارجه ريبض ينزله الغرباء^(٧٠).

ولم يقتصر كرم أهل الشام على المسلمين والخاصة منهم داخل الجوامع والخانات فحسب، بل شمل حتى المسيحيين "فبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص، وهو أعظم دير بالشام ومصر (...)" وكل من نزل به من المسلمين، فالنصارى يضيفونه وطعامهم الخبز والخبز والزيتون والخل البكر^(٧١)، وعندما ذكر مدينة حمص، أورد ابن بطوطة أن أهلها "عرب لهم فضل وكرم"^(٧٢). وقد حظي المغاربة بمكانة متميزة في نفوس أهل الشام، وذلك بحكم العلاقات الروحية والثقافية التي تربط جناحي العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً، وفي هذا الصدد يذكر ابن بطوطة أن "أهل دمشق يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد، وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق، لا بد أن يتأتى له وجه المعاش"^(٧٣). ومما ينم عن روابط المحبة بين الشاميين والمغاربة، كثرة أعمال الوقف التي كانت تتم لفائدة المغاربة بالشام، فالسلطان نورالدين محمود بن زنكي، عين للمغاربة الغرباء أوقافاً كثيرة منها سبعة بساتين وأرض بيبضاء، وأن المشرف عليها كان هو الأخر مغربي يدعى أبو الحسن علي بن سردال الجباني^(٧٤).

ولما كانت المحبة بين الشاميين والمغاربة، عامة وراسخة لدى العامة والخاصة منهم، فإن الوقف المخصص للمغاربة، لم يقتصر على حكام الشام فحسب، بل شمل كل طبقات المجتمع الشامي، وفي هذا الصدد يطالعنا أبو شامة المقدسي أن أحد الشاميين ممن عرفوا بالصلاح والمسمى خليل بن زوزان قد أوقف أرضه لتكون مقبرة خاصة بالمغاربة، وكان أول من دفن بها "الفقيه الصالح أبو الحسن علي المراكشي، والمحب اللبلي المعروف بالمغربي والتقي أبو عبد الله المغربي الجابري"^(٧٥)، فضلاً عن "مقبرة فقراء المغاربة" التي تقع في سفح جبل قاسيون في مغارة الدم بشمال دمشق^(٧٦)، كما وجد من أغنياء دمشق من وقف جزءاً من ثروته الخاصة على الفقهاء المغاربة، ويتعلق الأمر بأحمد بن عبد الله الذهبي الكتي المتوفى سنة ٦٦٣هـ، وكان ممن "خلف كتباً كثيرة وثروة، ووقف داره على فقهاء المالكية"^(٧٧)، وهو ما ينم عن المحبة المتبادلة و المكانة الرفيعة التي يحظى بها المغاربة في نفوس الشاميين.

الاحالات المرجعية:

- (١) إن المقصود بالمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، المغرب الأقصى والأوسط وإفريقية ثم الأندلس، انظر التفاصيل عن الحدود السياسية لبلاد المغرب الإسلامي عند: عز الدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الشروق، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص. ٣٩ وما بعدها.
- (٢) وتقصد بلاد الشام التاريخية الكبرى التي وصف حدودها الزهري بقوله: "ومما يلي هذه المدينة (عسقلان) لناحية المغرب على ساحل البحر مدينة أسفاقس واطرابلس الشام ومدينة صور ومدينة عكة، وهذا آخر حد الشام من ناحية الجنوب على ساحل البحر، وأما في البر من ناحية الجنوب فأرض مدين وجبل الطور (...) وفي أرض مدين (...) وهذا آخر الشام في الجنوب، وقيل إن حد الشام، ما جاوز النيل إلى المشرق وكذلك حده في الشمال مدينة هرقله وهي من بنيان هرقل ملك الروم وإليه نسبت". انظر: الزهري، **كتاب الجغرافية**، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الظاهر، د ت، ص. ٧٢.
- (٣) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الأماق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج ١، ص. ٣٥٥-٣٦٦.
- (٤) الزهري، م س، ص. ٦٣.
- (٥) يقول ياقوت الحموي عن مدينة عمان مثلاً "عمان (...) بلد في طرف الشام، وكانت قصبه أرض البلقاء (...) وعمان هي مدينة دوقيانوس، وبالقرب منها الكهف والرقيم معروف عند أهل تلك البلاد والله أعلم"، انظر: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ج ٤، ص. ١٥١-١٥٢. وعن وصف مدن الشام في العصر الوسيط، راجع: -محمود مؤنس عوض، **الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية**، منشورات عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، القاهرة، ١٩٩٥م. -أيضاً: حسين عطوان، **الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي**، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- (٦) أحمد علي، **الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس إلى نهاية القرن التاسع الهجري**، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٩م.
- (٧) عبد المجيد بهيني، **وقفات في تاريخ بلاد الشام زمن الحروب الصليبية**، مطبعة الكرامة، ط ١، الرباط، ٢٠٠٥م.
- (٨) إبراهيم القادري بوتشيش، **بين أخلاقيات العرب وذهنيات الغرب**، دراسات في الأثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥.
- (٩) زكي النقاش، **العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية**، دار الكتاب اللبناني، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.
- (١٠) ومن الدراسات القليلة التي لامست الموضوع، يمكن أن نذكر أيضاً: كتاب أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم، **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام**، بيروت، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٢م. أيضاً: عبد المجيد نعنعي وآخرون، **صورة المرأة الصليبية في ظل الاحتلال الإفرنجي**، بحث ضمن كتاب "المناطق اللبنانية في ظل الاحتلال الإفرنجي"، منشورات فيلون، لبنان، ١٩٩٧م، ص. ٣١٤-٣٣٧. أيضاً: عبد الهادي التازي، **التاريخ**
- الدبلوماسي من أقدم العصور إلى اليوم، مطابع فضالة، المحمدية، المجلد: ٦، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، المجلد: ٧، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- (١١) عبد العزيز بن عبد الله، **ثلاثة قرون بين الشام والمغرب عبر الأندلس**، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٤٤، ربيع ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص. ١٠٧-١٠٨.
- (١٢) كشف الباحث البرازيلي "ألديز لو نيتو" ضمن كتابه: الأثروبولوجيا، ومن خلال رخصة تحمل تاريخ ١٢٥ ق.م، أن العديد من الألفاظ مفرغة في قالب عربي مع تحريف بسيط. انظر: **نفسه**، ص. ١٠٨.
- (١٣) عبد العزيز بن عبد الله، م س، ص. ١١٠.
- (١٤) المقرئ التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص. ١٤ وما بعدها.
- (١٥) ثورة الرض: قام بها أهل قرطبة ما بين ١٨٩هـ/٨٠٤م-٢٠٢هـ/٨١٧م، وخاصة سكان رضى شقندة منهم، ضد الأمير الحكم بن هشام (١٥٤-٢٠٦هـ/٧٧١-٨٢٢م)، وقد كادت أن تنتهي حكمه، كان من نتائجها إجلاء عدد كبير من سكان الرض عن قرطبة، فقد كان هذا الأمير "طاغياً مسرفاً وله آثار سوء قبيحة، وهو الذي أوقع بأهل الرض الواقعة المشهورة فقتلهم، وهدم ديارهم ومساجدهم، (...) فخرجوا حتى نزلوا جزيرة إفريطش من جزائر البحر الرومي المقابلة لبر برقة أول المغرب، فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا"، انظر: عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبطه وصححه وعلق على حواشيه، محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة القاهرة، ط ١، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ص. ١٩-٢٠. وراجع أيضاً: إضافات مفيدة عند: محمد خالد مصطفى المومني، **الفقهاء وثورة الرض في الأندلس (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م)**، رسالة لنيل درجة الدكتوراه، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص. ١٣٦-١٩٢.
- (١٦) المقرئ، م س، ج ١، ص. ٣١٨. أيضاً: عبد العزيز بن عبد الله، م س، ص. ١٠٩.
- (١٧) عرف عهد عبد الرحمان الناصر الأموي (٢٧٧-٣٥٠هـ/٨٩١-٩٦١م)، ازدهاراً كبيراً شمل كل القطاعات الاقتصادية، إضافة إلى العلوم والفنون وعرف عهده تحولا مهما في تاريخ الحضارة المغربية الأندلسية. انظر: ابن عذاري، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط ١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ج ٢، ص. ٢٠٦ وما بعدها.
- (١٨) عبد العزيز بن عبد الله، م س، ص. ١١٨.
- (١٩) **نفسه**، ص. نفسها.
- (٢٠) أحمد علي، م س، ص. ١٢.
- (٢١) عبد المجيد بهيني، **وقفات**، م س، ص. ٢٥٠.
- (٢٢) أحمد علي، **الأندلسيون والمغاربة**، م س، ص. ٩٢.
- (٢٣) أحمد علي، **بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري**، مجلة التاريخ العربي، العدد: ١٥، صيف ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص. ٣٧.
- (٢٤) عبد المجيد بهيني، **وقفات**، م س، ص. ٢٢٧ وما بعدها.
- (٢٥) **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج ٢، ص. ٣٤.

(٤٧) عن الأصداء التي خلفتها الهجمة الصليبية الأولى لدى المغاربة، راجع: ممدوح حسين وشاكر مصطفى، **الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري، ١٦٦٨هـ-١٧٩٢هـ/١٢٧٠-١٣٩٠م**، دار عمار للنشر، عمان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص١٤٩ وما بعدها. - أيضاً: أحمد بن خيرة، **أصداء الحروب الصليبية في مصر والشام على المغاربة "ردود الفعل الأولية"**، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد: ١٧، ص٥٢ وما بعدها.

(٤٨) ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق أبو عبد الله السعيد المنذوه، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج١، ص٢٦٩.

(٤٩) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق إحسان عباس ومحمد بنشريفية وبشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٢م، السفر الخامس، ترجمة رقم ٦٢٧.

(٥٠) ابن جبير، **م س**، ص٢٤٧-٢٥٣.

(٥١) ياقوت الحموي، **م س**، ج٦، ص٤٠١. - أيضاً: محمد المنونى، **نماذج من مساهمات الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية بالشام وما إليه**، مجلة كلية الآداب، الرباط، العدد: ٢١-٢٢، السنة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١٤٤.

(٥٢) ينتسب يوسف بن دوناس الفنلاني الى قبيلة فنلواوة بأحوال فاس، وهي قبيلة كانت تستوطن بين مدينة صفرو وقرية رباط الخير (هرمومو) حيث جبال بني يازغة الحالية، وقد اندثر اسم فنلواوة بعد اندماجها في قبيلة بني يازغة، ولم يبق لها ذكر سوى في الكتب القديمة، انظر: ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٢٤، الهامش رقم: ٢٥.

(٥٣) انظر: رسالة للقاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى وزير بغداد يبشره بفتح حصن الأحران وتخريبه سنة ٥٧٤هـ، وينوه بدور المغاربة في مساندة المسلمين عندما ضيق الفرنجة الخناق على عكا، عند: أبو شامة، **م س**، ج٢، ص١٤. - أيضاً: بهيني، **المغاربة والجهاد البحري ضد الصليبيين**، مجلة التاريخ العربي، العدد ١٥، السنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٥١. أيضاً: بهيني، **وقفات**، م س، ص٢٥٥-٢٥٦.

(٥٤) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، راجعه وصححه، محمد يوسف الدقاق، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٢م، المجلد ١٠، ص١٦٠.

(٥٥) محمد المنونى، **م س**، ص١٤٤.

(٥٦) ابن الأثير، **م س**، ج١٠، ص١٥٤.

(٥٧) النويري، نقلاً عن عبد السلام تدمري، **م س**، ص٢٤.

(٥٨) المقرئ، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٢، (٦٦٢-٧١٧هـ) ص٣٥٣ وما بعدها.

(٥٩) ممدوح حسين ومصطفى شاكر، **الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري**، دار عمار للنشر، عمان، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص١٨١.

(٦٠) انظر نص الرسالة عند: أبو شامة، **م س**، ج٢، ص١٧٠-١٧١.

(٦١) عبد الهادي التازي، **م س**، ج٦، ص٣١٥.

(٦٢) **الرحلة، المسماة بتذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٢٢٥.

(٦٣) انظر تفاصيل عوامل أخرى ساهمت في نزوح المغاربة والأندلسيين إلى بلاد الشام، عند أحمد علي، **الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام**، م س، ص٨٣-١٠٨. أيضاً: عبد المجيد بهيني، **وقفات**، ص٢٢٧ وما بعدها.

(٦٤) عن موارد وخيرات بلاد الشام الاقتصادية خلال العصر الوسيط، انظر: **الإدرسي** واصفاً إحدى حواضرها بقوله "ومدينة دمشق من أجل بلاد الشام وأحسنها مكانا (...) وأكثرها مياه وأزرها فواكه وأعمها خصبا وأوفرها مالا (...) ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة (...) وبها ضياع كالمدين"، انظر: **م س**، ج١، ص٣٦٦.

(٦٥) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، طبع بعناية س. ديدر ينغ، دار النشر بفسبادن، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ج٤، ص٢٤. أيضاً: أحمد علي، **بلاد الشام في نظر المغاربة**، م س، ص٤١.

(٦٦) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج٢، ص١٥٥-١٥٧.

(٦٧) ينتسب ابن أبي أصيبعة الدمشقي إلى بيت علم وجاه، فقد كان والده من أمهر الكاطين (أطباء العيون) في دمشق، ولد سنة ٦٠٠هـ وتوفي سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩م، انظر، **نفسه**، ج١، ص٥٠.

(٦٨) ابن أبي أصيبعة، **م س**، ج٢، ص١٦٣.

(٦٩) الصفدي، **م س**، ج٤، ص١٦٢.

(٧٠) ابن بطوطة، **تحفة النظار في عجائب الأمصار وغرائب الأسفار**، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، راجعه وأعد فهرسه مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٧٧.

(٧١) عبد السلام تدمري، **الأندلسيون والمغاربة في طرابلس الشام**، مجلة التاريخ العربي، العدد ١٢، خريف ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٢٦.

(٧٢) يقول الطرطوشي: "فلما هممت بالرحيل من بلدي إلى الشرق في طلب العلم، كنت لا أعرف بالتجارة، ولا لي حرفة أرجع إليها فجزعت من الخروج (...) وكانت أقوى الآمال في نفسي أن أحفظ البساتين بالأجر"، انظر: **سراج الملوك**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٢٩٣.

(٧٣) ابن جبير، **م س**، ص٢٥٥.

(٧٤) **نفسه**، ص٢٣٣.

(٧٥) عبد المجيد بهيني، **وقفات**، م س، ص٢٣٧. وعن تفاصيل الحضور المغربي الأندلسي في القطاعات الاقتصادية ببلاد الشام، انظر: أحمد علي، **الأندلسيون والمغاربة**، م س، ص٧٤ وما بعدها.

(٧٦) أحمد علي، **بلاد الشام في نظر المغاربة**، م س، ص٢٤٦.

(٧٧) أبو شامة، **م س**، ص١٥٧-١٥٨. أيضاً: بهيني، **وقفات**، ص٢٣٨.

(٧٨) **نفسه**، ص١٥٧-١٥٨.

(٧٩) ابن عماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٤، ص١٢٨.

(٨٠) أحمد علي، **الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام**، م س، ص٢٤٧. أيضاً: عبد المجيد بهيني، **م س**، ص٢٣٩.

(٨١) **نفسه**، ص٢٥١.

(٨٢) أحمد علي، **بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين**، م س، ص٥٥.

- (٦٢) الناصري، **الاستقما لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، البيضاء، ١٩٥٤م، ج٢، ص. ١٨٢-١٨٣.
- (٦٣) كلود كاهن، **الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية**، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص. ٢٤٢.
- (٦٤) بهيني، **المغاربة والجهاد البحري ضد الصليبيين**، م س، ص. ١٥٤-١٥٣.
- (٦٥) عبد الهادي التازي، **م س**، المجلد (٦)، ص. ٣١٤-٣١٥. أيضاً: عبد المجيد بهيني، **وقفات**، م س، ص. ٢٥٩.
- (٦٦) ابن جبير، **م س**، ص. ٢٥.
- (٦٧) **نفسه**، ص. نفسها.
- (٦٨) ابن بطوطة، **م س**، ص. ٨٠.
- (٦٩) **نفسه**، ص. ٨٢-٨٣.
- (٧٠) **نفسه**، ص. ٩٩.
- (٧١) **نفسه**، ص. ٩٨.
- (٧٢) **نفسه**، ص. ٨٣.
- (٧٣) **نفسه**، ص. ١٢٠-١٢١.
- (٧٤) عبد الهادي التازي، **م س**، المجلد ٦، ص. ٣١٤-٣١٥.
- (٧٥) أبو شامة المقدسي الدمشقي، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين**، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص. ١٥٣.
- (٧٦) **نفسه**، ص. ١٧٣.
- (٧٧) أبو شامة، **م س**، ص. ٢٣٥.